..... إلى رحمة الله يا أبي

في رثاء والدي الغالي: عبد الله بن نافع بن أحمد النافع

ت ٢٤-٦-١٤٤٦هـ

الحمدُ لله أوَّلًا وآخِرًا، والحمد لله على كلِّ حالٍ، والحمد لله على ما قضى.

خَمْسُونَ يَوْمًا عاشها والدي في المستشفى قبل وداعنا، ووداع الدنيا بأسرها..

كان المَرَضُ يسري في جسده النَّحِيل، وهو صابِرٌ مُحْتَسِبٌ، يرجو ما عند الله الرحمن الرحيم؛ يعلمُ أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وأن ما يُبذل في العلاج هو من بذل الأسباب فحسب.

ظَنَّ بالله في الشَّدائد خَيْرًا فهو أولى بكلِّ ظنٍّ جميلٍ

بإيمانه، وعلمه أن تقديرَ الله له أن يعيشَ في هذه الدنيا مُدَّةً محدودةً، لن تزيدَ ثانيةً ولن تنقصَ، فإذا حان القضاء ضاق القضاء.

(فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ)

فالأنفاسُ محسوبةٌ، ودقائقُ قلبه معدودةٌ، فلن تزيدَ دقيقةً واحدةً، ولو دفع الإنسانُ الدنيا وما فيها.

دَقَّاتُ قلبِ المرءِ قائلةٌ له إِنَّ الحِياةَ دقائقٌ وثواني.

وقد رضي أبي بالقضاء، ومَن رضي به صبرَ على البلاء.

في الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائر

لَمَّا رَأَيْتُ مَوَارِدًا لِلْمَوْتِ لَيْسَ لَهَا مَصَادِرُ

وَرَأَيْتُ قَوْمِي نَحْوَهَا تَمْضِي الْأَصَاغِرُ وَالْأَكَابِرُ

لَا يَرْجِعُ الْمَاضِي وَلَا يَبْقَى مِنَ الْبَاقِيْنَ غَابِرُ

أَيَقْنَتُ أَنِّي لَا مَحَالَةَ حَيْثُ صَارَ الْقَوْمُ صَائِرُ.

كان أبي - رحمه الله - بنا رحيماً، حتى قبيل وفاته! فقد أراد الله - سبحانه - تلك المقدمة، وذلك الوقت - الخمسين يوماً - ليخف علينا المصاب، ويهون علينا الوداع!

حتى في لحظات أنفاسه الأخيرة، وقبل فراق روحه جسده، همس بصوت خافتٍ يطلبُ حضورَ إخوتي، وكأنه يقول: لِيُصَبِّرْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا عَلَى وَدَاعِي وَفِرَاقِي!

رحمة بي، وهو يشاهد علاماتِ الحقِّ بادية!

قلبٌ رحيماً رؤوف، حتى وهو في أشد الظروف!

أبي.. اتسمت شخصيته بِسِمَاتِ قَلِّ أَنْ يَشَابَهَهُ فِيهَا أَحَدٌ؛ فَقَدْ كَانَ لِقَلْبِهِ الْكَبِيرِ مَسَاحَةً
وَاسِعَةً لِلْقَبُولِ وَالتَّجَاوُزِ، وَدَمَحِ الزَّلَاتِ، وَبَذْلِ الْمَكْرَمَاتِ، وَحُبِّ الْمَسَاكِينِ، وَمُسَاعَدَةِ
الْمَحْتَاجِينَ.

وَلَا يَزَالُ _ وَاللَّهُ الْحَمْدُ _ يَذْكُرُهُ بِذَلِكَ كُلُّ مَنْ عَرَفَهُ كَمَا تَرَدَّدَ اسْمُهُ، وَجَاءَ ذِكْرُهُ.

سَأَذْكَرُ جَوَانِبَ مِنْ حَيَاتِهِ عِشْتُهَا، وَعَاشَهَا إِخْوَتِي وَأَخَوَاتِي، وَبِالطَّبْعِ عَاشَ جِزَاءً مِنْهَا مَنْ
عَرَفَهُ، مِنْ أَصْدِقَاءٍ، وَجِيرَانٍ، وَزَمَلَاءِ عَمَلٍ، وَأَقَارِبٍ، مِنْ رَحِمٍ، أَوْ نَسَبٍ.

كُلُّ مَنْ عَرَفَهُ يُشْعِرُكَ أَنَّ (أَبَا فَهْدٍ) خَدُومٌ، شُغُوفٌ بِنَفْعِ النَّاسِ، وَإِسْعَادِهِمْ. يَقْدَمُ الْجَاهَ
وَالشَّفَاعَةَ، وَبِذْلِ الْوَقْتِ وَالْمَالِ؛ لِتَحْقِيقِ ذَلِكَ، وَهَذَا مَا كَانَ يَكْرَهُ لَنَا.. تَعْلِيمًا. أَنْ نَقْدَمَ مَا
نَسْتَطِيعُ وَمَالًا نَسْتَطِيعُ لِنَفْعِ عِبَادِ اللَّهِ.

وَبِحُكْمِ عَمَلِهِ فِي الْخِدْمَاتِ الطَّبَّيَّةِ، فِي رِئَاسَةِ تَعْلِيمِ الْبَنَاتِ سَابِقًا؛ دَائِمًا مَا يَصِلُنَا مِنْ
أَخْبَارِهِ؛ كَمْ كَانَ يُكْرِسُ جُهْدَهُ، سَعْيًا لِإِسْعَادِ النَّاسِ، وَمَنْفَعَتِهِمْ، وَكَمْ يَعْمَلُ عَلَى إِرْضَائِهِمْ،
وَتَبْشِيرِهِمْ؛ بِنَقْلِ الْأَخْبَارِ السَّارَةِ لَهُمْ، وَإِدْخَالِ السُّرُورِ إِلَى قُلُوبِهِمْ.

إِذَا عَلِمَ بِقَضِيَّةٍ اسْتَفْرَغَ جُهْدَهُ فِيهَا؛ رَأْيَهُ، وَمَالَهُ، وَوَقْتَهُ، لِحَلِّهَا، وَتَيْسِيرِهَا.

عَمَلًا بِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: (خَيْرُ النَّاسِ أَنْفَعُهُمُ لِلنَّاسِ) وَقَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ:
(وَلَنْ أَمْشِيَ مَعَ أَخِي فِي حَاجَةٍ خَيْرٌ لِي مِنْ أَنْ أَعْتَكِفَ فِي مَسْجِدِي هَذَا شَهْرًا).

وَقَدْ وَقَفْتُ عَلَى قَصِيدَةٍ كَتَبَهَا رَشِيدُ السَّلْطِيِّ، مِنْ حُوْطَةِ بَنِي تَمِيمٍ، قَبْلَ أَرْبَعِينَ عَامًا،
وَتَحْدِيدًا بِتَارِيخِ ١٤٠٥/٥/٢٠ هـ، أَرْسَلَهَا لِأَبِي، يَقُولُ فِيهَا: أَرْسِلْ إِلَيْكُمْ قَصِيدَتِي هَذِهِ لَعَلَّهَا
تَصِلُكُمْ وَأَنْتُمْ تَتَمَتَّعُونَ بِالصَّحَّةِ الْجَيِّدَةِ، وَتَرْفُلُونَ بِحُسْنِ الْعَافِيَةِ، وَبَعْدُ:

إِلَيْكُمْ قَصِيدَتِي - أَقْدَمْتُهَا هَدِيَّةً لَكُمْ تَعْيِيرًا عَنْ مَحَبَّتِي لَكُمْ:

أَبَا الْفَهْدِ أَسْعَدْتُمْ بِمَجْدٍ	مَعَ الْأَصْحَابِ كُلِّهِمْ كِرَامًا
وَهَبْتَ النَّاسَ أَطْيَابًا فَبَاتُوا	كِرَامًا وَأَزْدَهُ فِيكَ الْكَلَامُ
دَعَا رَبَّ السَّمَاءِ دَوَامَ مَجْدٍ	عَلِيَّ يَرْتَقِي وَلَكَ الْمَرَامُ
نَفُوسُ الصَّحْبِ طَيِّبَةٌ وَبَيْضٌ	رَعَاهَا اللَّهُ يُسْعِدُهَا الْهُمَامُ
وَتَقْبَسُ مِنْهُ أَنْوَارًا كِرَامًا	فَتُبْهَرُهَا الْمَزَايَا وَالِدَعَامُ
وَتَاهُ الدَّرُّ أَطْيَابًا وَأَنْتَ	تَسُوقُهُ وَالْقُلُوبُ لَكُمْ مُقَامُ
تَبَاهَتْ فِيكَ وَازْدَادَتْ ضِيَاءً	تُدَاعِبُهَا الْمَرْوَةُ وَالذَّمَامُ

أبي - رحمه الله - كان رجلاً باشاً، دائم التَّبَسُّم، صاحبَ فِكاهةٍ مع حِفْظِ هَيْبَةٍ، سَرِيعِ الألفَةِ لا يتكلَّفُها، يتعرَّفُ على من يُقابله بسرعة، ويحبه من يتعرَّفُ عليه كذلك، لا يشبع جليسه من الحديث معه، فهو مع الكبار كبيرٌ موقرٌ محفوظٌ هيبته، ومع الشباب شابٌّ يافعٌ، يتوقد حماساً، وتفاعلاً، ومع الأطفال بسيطٌ رقيقٌ، رقيقٌ، لا تغفله الحكمة، فيُنزل الناسَ منازلهم، وإذا تكلم أحدٌ بحضرتِه أنصت له، وأحسن الاستماعَ إليه.

صفوةٌ محبِّيه أصدقاءُ أبنائه، يذهب، ويسافر، ويتسامر معهم، أحبهم فأحبوه، وفي دروب الخير تعاونوا وتآزرُوا معه..

لكلِّ امرئٍ شكلٌ من الناسِ مثله وكل امرئٍ يهوى إلى من يُشاكله

وأما صفحاتُ كرمِه، وجودِه، فسبحان من أمده وأعطاه. وطبَّعه على سماحة النفس، وكريم الصفات.

سجِيَّةٌ غيرٌ متكلِّفةٍ، بابه مفتوحٌ يومياً بعد المغرب، وبعد العشاء أيضاً، فشهرته بإكرام الضيفِ والجارِ والغريبِ لا تنحصِر، وليس إكراماً مُدته يومٌ أو أكثر، بل هو مستمرٌ سنواتٍ متعاقبات.

كان رحمه اللهُ كثيرَ البذلِ والسخاءِ، جزيلَ العطاءِ، رقيقَ القلبِ للضعفاءِ.

قال عنه الداعيةُ المعروفُ (أبو أيوب) إبراهيم بن حمد العبودي حين زارنا في العزاء وقبِل ذلك بالمستشفى:

هناك أناسٌ أزورهم، وأعرفهم من سنوات، يفتحون أبوابهم في اليوم مرّة، أما أبو فهد فأشهدُ أنه يفتح بابه مرتين ويستقبل السعوديين والوافدين.

لا خيرَ في مالٍ إذا المالُ لم يكنُ فيه لمن لادَّ به فضل

وفي الزلْفِي حين يعودُها زائرًا، فمزرعته مُشرعةٌ أبوابها فور وصوله لها، وسيارات زواره عند بابه مشهودة،

يُعرفُ وصوله لدى أهل الحي بامتداد مواقف السيارات وكثرتها، من محبين، ورجال قديموا للسلام، والمؤانسة، والمجالسة، لا حرمهم الله الثواب.

يدُهُ طولاً، يُعطى عطاءً من لا يخشى الفقر؛ لأنه كما قيل: الكريم يُحس نفسه غنياً دائماً، وأصلُ المحاسن كلها الكرم.

فلا الجودُ يُفني المالَ قبلَ فنائه ولا البخلُ في المالِ الشَّحيحِ يزيدُ

يوزع ثَمور مزرعته كلها، بين بيته، والأقارب، والجيران، والأصدقاء، وأحياناً يضطرّ للشراء من السوق؛ لنفاد ما لديه من مزرعته، رغم تنوع ثمارها، ومحاصيلها.

وقد قام - رحمه الله - بتوزيع كل ثمار مزرعته قبل وفاته بأيام، كعادته السنوية في كل عام.

أبي - رحمه الله - من زاره بالمستشفى مغرباً، أو عشاءً كان يطلب منه إحدى اثنتين:

إما عشاء في البيت، وإما أن يوصي بإحضار العشاء له بالمستشفى، . هذا مع حالته الصحية والتي كانت بين ألم، وتعَب، لكنه الطبع الأصيل الذي ما انفك عنه!

تراهُ بالجُود والإحسانِ مُحْتَفِلاً يُعْطِي عَطَاءً كَرِيمٍ غيرِ مُحْتَفِلٍ

حتى وهو بالمستشفى طيلة فترة وجوده نال عطاؤه الممرضين والممرضات، فأصبحوا في دهشة من كثرة العطايا، وحسن السجايا؛ لطيب تعامله وبشاشته معهم.

وقد ذكر الدكتور فهد الغملاس - وهو طبيب استشاري بالمستشفى الذي يرقد فيه الوالد - وهو زوج إحدى أخواتي: أن الممرضات وهن غيرُ مُسلمات كُن في دهشة من سماحة الوالد، ولين جانبه، وحسن تعامله. وذكروا له بعد وفاة الوالد أن هذا الرجل - بإذن الله - في الجنة، وقد تأثروا جداً لفقدانه، ورحيله. وقد أرسلت إحداهن رسالةً تحكي واقع الوالد، وكيف كان - رحمه الله -.

وأما عن قوة علاقته بجيرانه فقد تمثل قول رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: (ما زال جبريلُ يُوصيني بالجارِ حتى ظننتُ أنه سيورثه).

وقوله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ، وَفِي لَفْظٍ: فليُحْسِنِ إِلَى جَارِهِ.

فتتعب من كرمه، وإحسانه، وقوة روابطه معهم؛ والتي ساهمت بوصولهم عبر كل تلك السنين، مما جعلهم كأُسرةٍ واحدةٍ مُتَحَابِّينَ مُتَأَلِّفِينَ، ولهذا أوجعهم جداً فقداه وآلمهم رحيله!

أرفعُ الناسَ قَدْرًا من لا يرى قَدْرَهُ، وأكثرُهُم فَضْلًا من لا يرى فَضْلَهُ

كان - رحمه الله - جواداً، ماجداً، فياضَ اليدين، من أكرم الناس إن لم يكن أكرمهم حتى أصبح مقصداً للناس، ولبعض أهل الزلفي، وغيرهم حين يقدمون للرياض، يجلسون عنده الليالي ذوات العدد، يوم كانت الأمور في قديم الزمان ليست كما هي الحال الآن، كان لا يرد سائلاً، ولا تراه عن البذل عادلاً، وكأنما هو المقصود بقول زهير:

تَعَوَّدَ بِسَطِّ الكَفِّ حَتَّى لَو أَنَّهُ ثَنَاهَا لِقَبْضٍ لَمْ تُجِبْهُ أَنَامِلُهُ

تراهُ إِذَا مَا جِئْتَهُ مُتَهَلِّلاً كَأَنَّكَ تُعْطِيهِ الَّذِي أَنْتَ سَائِلُهُ

هو البحرُ من أيِّ النَّواحي أتيته

فلجَّته المعروفُ والجودُ ساحله

ولو لم يكن في كفه غيرُ روحه

لجاد بها فليتق الله سائله

يقول عنه محمد الشامري أبو معاذ (الغراب) وهو جازُّ لنا أكثر من ثلاثين عامًا:

حين دخلَ الوالدُ المستشفى أنطفأ نورُ الحارّة، وانكسر ضياؤها، وأصبحتُ موحشةً، وكان الحزنُ يُخيم على قلبي مع كل تردد ومرور لمنزله العامر بالناس، ولن أنسى مواقفه ما حييت!

أمّا بعدَ موته فقد أحدثَ شرخًا، وألمًا، ودمعًا؛ يصعبُ وصفُه وتخيُّله، فهو لا زال في مُخيّلي مع كلِّ طرفةٍ عين، ومشاهدةٍ منزله، ورؤيةٍ ذريته، ولا نقول إلا ما يُرضى ربّنا، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

ويقول ابنه معاذ: لم أعهدُ أي باكيًا، متأثرًا، حزينًا، كما شاهدته حين فقد (أبو فهد) رحمه الله، حتى أصبحنا وأهلنا نخشى عليه.

ويقول عنه الشيخ عبد الله بن صالح السّياري وهو محافظ رفحا سابقًا:

بغيب (أبو فهد) غابتِ المتعةُ، والقلبُ الواسعُ، والابتسامةُ الصادقة، واندثر الكرمُ المشهودُ له بين أهل الحيّ من سنوات ...!

ويقول عنه نايف بن محمد الجريس:

منذ سكنتُ بجواره، ولامس جداري جداره، وأنا في كلِّ يومٍ أستفيدُ منه خُلُقًا كريمًا، وصِفَةً حميدةً، والله لقد بكيْتُ عليه بكاءً لم أعهدُه من نفسي أبدًا، رغم كثرةٍ من فقدتُ في حياتي من الأقارب والأصدقاء!

كان والدي - رحمه الله - مدرسةً بكل جوانبها، وتفصيلها، يُعلم مكارم الأخلاق، ومحاسن الشيم، والقيام بالواجبات، إلى أن أصبحنا رجالًا يُعتمد عليهم في المهمات.

وقد كانت له - رحمه الله - عاداتٌ اعتادها وعُرف بها، ومنها:

التزامه بالأذكار والأوراد اليومية، فما رأينا منه تركها، أو تأجيلها، وكثيرا ما كان يُردد: (لا حولَ ولا قوةَ إلا بالله).

ومن عاداته - رحمه الله - حرصُه الشديدُ على صلة الرّحم، والسؤال الدائم، والتواصل مع أقاربه ومحبيه، وتوجيهه لنا منذ كُنّا صغارًا لنُصحبه في زيارة والديه، وأعمامه، وأخواله، رحم الله الجميع، وأسبغ عليهم رضوانه.

ومن عاداته - رحمه الله - كثرة بذله للصّدقات، وكفالة اليتامى، وإفطار الصائمين، وتوزيع العود والبخور، والقيام على شؤون مركزه الإسلامي بأفريقيا منذ ٢٠ عامًا.

كما كانت من عاداته النبيلة كراهيته إغلاق باب منزله وقت جلسته، بل كان يفرح بمقدم الزوّار، ويرحبُ بهم، ويُسرُّ بكثرتهم، فيُحسن الاستقبال، ويكثرُ الترحيب، ويقبلُ على ضيفه، ويحرص على إعزازه وإسعاده، ففي سعة الأخلاق كنوز الأرزاق.

ومن عاداته . **رحمته الله** . توقيره لولاة الأمر، ومحبتهم، والدعاء لهم، لأن في ذلك حصول البركة واجتماع الخير، وبتقديرهم تجتمع الكلمة وتؤلف القلوب ويقطع دابر الفساد، فالأمة إذا اجتمعت، عزة وكرامة، وإذا تفرقت، ذلة وإهانة.

قال عنه عبد الله بن إبراهيم بن مالك - وهو صديقُه الحميم، وجليسه الدائم، وصاحبه في حله وترحاله منذ ستين عامًا :-

كان الأمير الزاهد محمد بن عبدالعزيز بن سعود، ابن الإمام فيصل بن تركي وهو من العباد المشهورين، وكان حريصًا على الصلوات ، مُلازمًا للجَماعة ، حريصًا على الاعتكاف والعمرة والحجّ سنويًا، متواضعًا، زاهدًا بالدنيا وهي مقبلة عليه، مهتمًا بمطالب الصالحين ومنازل السائرين، قال عنه إمام العصر سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز - **رحمته الله** -
(كان من خير الناس وأتقاهم) وحسبُك بها من شَهادة إمام .

أنَّ الوالد . **رحمته الله** . كان من أخصَّ النَّاسِ لديهِ، يُحبُّهُ الأميرُ ، ويُقربُهُ، وَيَسْتَشِيرُهُ، ويوصي أبناءه به، وكان هذا الأمرُ منتشرًا ، ذائع الصَّيت في ذاك الزَّمان بينَ رجالات الأمير، وقد أرسله ذاتَ مرَّة في الحجِّ لِيَسْأَلَ الشَّيْخَ ابنَ باز. رحمَهُ اللهُ . عن مسألة في المناسِك؛ لأنَّه يثقُ به وبنزاهته، ولذا نجد أولادَه - حفظهُم اللهُ - كثيري التواصُل، والسؤال عن الوالد في حياته، وقد اتَّصل بنا صاحبُ السَّمو الأمير نايف بن محمد بن عبدالعزيز وأخوه صاحبُ السَّمو الأمير متعب بن محمد بن عبدالعزيز حين كان الوالدُ بالمستشفى للاطمئنان عليه، ورغبتهم بالمجيء، وكذا قاموا بالاتصال بأبنائه واحدًا تلو الآخر لتقديم العزاء، والمواساة في وفاته . رحمه الله . وجزاهم اللهُ خير ما جرى مُحسنًا على إحسانه، ورحمَ اللهُ والدَهُم ومن توفي من إخوتهم.

وقد كان من عادات الوالد . **رحمته الله** . كثرة اتصاله بأبنائه إذا كانوا في سفر منذ مغادرتهم إلى أن يعودوا سالمين، فتراه يتَّصل بين كل فترة وفترة؛ ليطمئن، ويُسمِعَهُم صوتَه، ويدعوا لهم بالسلامة وحِفظِ اللهُ، حيث كان كثيرَ الدعاء لنفسه، ولأولادِهِ، ووالديه، وللمسلمين جميعًا.

ومن عاداته . **رحمته الله** . سؤاله الدائم عن أحفاده، فتراه يسأل عن تواجدهم، وسبب عدم حضورهم لمجلسه اليومي، ويتصل بالصغير والكبير، ولذا تجد مجلسه عامرًا بأبنائه وأحفاده، وزواره بشكل دائم.

وكان - رَحِمَهُ اللهُ - لا يأتي موسمٌ للعيد أو الشتاء إلا وقد أفاضَ عليهم عطاءهُ، فيأخذُ للجميع احتياجاتهم من ملابس، ونحوها... ولو كان لديهم ما يُغنيهم ويكفيهم، ولا يرضى إلا وقد رَسَمَ الابتسامةَ على مُحيّاهم، واختاروا بأنفسِهِم ما يشتهون ويرغبون.

ولا أتذكر أنه قد يعفي أحداً من أولاده، أو أحفاده، من تكرار هذه الأسئلة عليه بين الفينة والأخرى حتى يحفظها:

من ربُّك؟

ما دينُك؟

من نبيُّك؟

حتى أصبحَ الأطفالُ يحدثُ بعضهم بعضاً عن سؤاله لهم، رحمَهُ اللهُ رحمةَ الأبرار، وأسكنهُ منازلَ الشهداء.

ومن عاداته - رَحِمَهُ اللهُ - استشارة من يثقُ برأيهم، فقد كان كثيرَ المُشاورَةِ لمن عُرِفَ بخبرته، ورأيه السديد، ويسكن إلى مشورتهم إذا عِلِمَ أصالةَ الرأي وحكمته.

فهو يتمثل مقولة: مَنْ رَكِبَ العَجَلَةَ أدركَهُ الزَّلُّ.

شاوَرُ سِوَاكَ إِذَا نَابَتَكَ نَائِبَةٌ يَوْمًا وَإِنْ كُنْتَ مِنْ أَهْلِ المَشُورَاتِ

ومن عاداته - رَحِمَهُ اللهُ - حِرْصُهُ على العلم، وتعليمِ أبنائه، مَهْمَا كان الثمنُ، فإن احتاج أحدهم مَدْرَسَةَ خاصَّةَ الحقِّ بها، وإن احتاج معلمَ خصوصي أحضره له، فالمهم عنده إدراكُ العِلْمِ وتحصيلِ المُنَى.

ولا زلت أتذكر حين قدم للبحرين ليحضر مناقشتي للماجستير عام ١٤٣٣هـ، وكيف تأثر وأثر، حين تم منحي شهادة الماجستير .

ومن عاداته - رَحِمَهُ اللهُ - أنه يُحسن الظنَّ بالناس، ويعامل الناس على ظواهرهم، ويعامل الناس بأخلاقه لا بأخلاقهم، ولا يرضى أن يذكر أحد عنده بسوء، وهذا من أسباب سَعَةِ علاقاته، واستمرار صداقاته.

فَإِذَا ظَفَرَتْ بَزَلَةٌ فَافْتَحْ لَهَا بَابَ التَّجَاوُزِ فَالتَّجَاوُزُ أَجْدَرُ.

قال عنه أحدُ أبرزِ صُحْبَتِهِ في السفر والحضر، وأحدُ أخصِّ رفقائِ أبنائه عبد الحميد بن عبد الله الشَّثري:

تعلمتُ من أبي فهد الكثير، لقد كان رُحْبَ الصِّدْرِ، طَيِّبَ المَعْشَرِ، لا تَمَلُ الحديثَ معه، أو مجالسته، أحسبُه - والله حسيبُه - من الصَّالِحِينَ.

تعلمتُ منه - رَحِمَهُ اللهُ - أمورًا كثيرةً لكثرة اللقاءاتِ به، والزياراتِ له، والسفَرَاتِ معه، فلا أذكر أنه قد اغتابَ أحدًا ولو تلميحًا، أو أساءَ لمُسلم.

ومنها تعظيمُه للصلاة، ومحافظةُته على الأذكار والأوراد اليومية، خاصة بعد صلاة الفجر والمغرب في السفر والحضر، وأذكر أننا كُنَّا في سفر فتحدث معه أحدُ الإخوة بعد صلاة المغرب وهو في مُصَلَّاهُ، وكان مُستغرِقًا في وِردِه، فلم يُجِبْه، واكتفى بالإشارة بيده، وقد أدركنا حينها أهميَّة الذكر، والتزامه به - رفعَ اللهُ منزلته، وأعلى في الجنة مقامه -

كان كريمًا جوادًا، يُكثر من دَعْوَتنا لزيارته في منزله، وتناول طعام العشاء بِالْحَاحِ مُحِبًّا، فكُنَّا نَأْسُ بِالْجُلُوسِ مَعَهُ، وترى الأُنسَ في عُيُونِ أبنائه وأحفاده الصغار، وهو يتحدَّثُ عن تجارب السابقين الأولين، مع ابتسامه صادقة، ومُفرداتٍ لطيفةٍ..

وقال عنه ياسر بن سعيد وهو من رجال الأعمال والأفعال، وهو ممن يُحِبُّنَا، ونُحِبُّه. وكان الوالد محبًّا له يجله، ويقدره، ويعامله معاملةً تليق به لجهوده، حيث كان يشرف على أعماله الإغاثية والخيرية في الخارج منذ ٢٠ سنة:

عرفتُ أبا فهد منذ زمن بعيد، فهو طيبُ المعشر، لطيفٌ، صاحبُ خُلُقٍ كريم، إذا قابلته يتعامل معك وكأنه في عمرك، والواقع أن بينك وبينه من السنوات الكثير. حديثه لا تملُّه، ابتسامته عند الاقبال عليك، وترحابه بك يبث فيك الروح. فقد كان طيبَ النفس، حبيبًا ودودًا كريمًا.

ثم يقول: حينما كنتُ زائرًا لدولة (غانا) في غرب القارة الأفريقية، وجدتُ لوحة على مدرسةٍ تجملتُ باسمه - رَحِمَهُ اللهُ - رحمةً واسعةً - عبر التدوة العالمية للشباب الإسلامي، وتعجبتُ من كثرة الأعداد الذين يدرسون فيها، وزيادة أعدادهم، فسألتُ بعضَ مَنْ يقوم بتدريس أبنائهم عن سبب ذلك؟ فقالوا: هذه المدارس من أفضل المدارس في هذه المنطقة، فهي تدرس العلوم الإسلامية، والعلوم العصرية كذلك، وطلابها مُتميزون علميًا، وشهادتها مقبولة في الجامعات في دولة غانا، فقلتُ في نفسي: هنيئًا لأصحاب هذا الصرح المبارك وإن دلَّ على شيء فإنه يدل على صدق مَنْ بناها، ولا نزكيتهم على الله.

وعزائي أنه قد ترك ذريةً طيبة، أحسن تربيتهم منذ نعومة أظفارهم، وأن سيرته العطرة ورثها لأبنائه، ولا نقول إلا ما يُرضى ربِّنا، وأسأل الله أن يُسكنه الفردوس الأعلى من الجنة، وأن يجمعنا به في دار كرامته. (انتهى كلامه)

وهؤلاء كلهم ممن شهدوا، وحضروا الصلاة عليه بالزلفي، وغيرهم كثيرٌ، لا حرم الله الجميع الثواب، وجزاهم خير ما جرى مُحسِنًا على إحسانه.

إنّ دعواتِ الْمُعْزِينَ، وَأَصْوَاتِ الْمُحِبِّينَ؛ من مَشَايخِ فَضْلَاءِ، وَطُلَّابِ عِلْمِ أَنْقِيَاءِ، وَأَصْحَابِ سُمُو أَمْرَاءِ، وَجِيرَانِ أَصْفِيَاءِ، وَصَفْوَةِ صَادِقَةٍ مِنَ الْأَخِيَاءِ لَهَا مِنْ أَعْظَمِ الْأَثْرِ عَلَيْنَا فِي الْعِزَاءِ.

كَانَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - بِنَاءً وَبِالنَّاسِ رَحِيمًا، وَقَدِيمٌ عَلَى أَرْحَمِ الرَّاحِمِينَ، وَكَانَ بِالنَّاسِ لَطِيفًا، وَقَدِمَ عَلَى مَنْ هُوَ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ، وَكَانَ مُحْسِنًا لِلنَّاسِ، وَاللَّهُ سَبْحَانَهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ، وَهُوَ بَيْنَ يَدَيْ أَكْرَمِ الْأَكْرَمِينَ - سَبْحَانَهُ - وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ: (هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ) وَهَذَا الظَّنُّ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ الْقَائِلُ: (فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ)

وَعِزَاؤُنَا: ثَقَّتْنَا بِاللَّهِ الْعَظِيمِ، وَرَحْمَتُهُ الَّتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ - سَبْحَانَهُ - وَمَا خَلَّفَهُ وَالِدُنَا - رَحِمَهُ اللَّهُ - مِنْ أَعْمَالٍ بَرٍّ، وَصِدَقَاتٍ؛ يَجْرِي ثَوَابُهَا لَهُ بَعْدَ مَمَاتِهِ، وَذَرِيَّةٌ صَالِحَةٌ طَيِّبَةٌ لَا نَزْكَيهِمْ عَلَى اللَّهِ، فَقَدْ وَرِثَ حَمَلَةً لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ يَحْمِلُونَ أَعْلَى الشَّهَادَاتِ فِيهِ، مِنْ بَنِينَ وَبَنَاتٍ، وَأُئِمَّةٍ مَسَاجِدٍ، وَقَضَاةٍ.

نَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَكُونُوا امْتِدَادًا لَهُ فِي الْخَيْرِ وَالْبِرِّ.

كَمَا أَنَّ تِلْكَ الْجُمُوعَ الَّتِي حَضَرَتْ لِلصَّلَاةِ عَلَيْهِ، وَالِدَعَاءِ لَهُ مِنَ الزَّلْفِيِّ وَالرِّيَاضِ حَيْثُ كَانَ الْجَمْعُ مَشْهُودًا، وَالْحَضُورُ كَثِيفًا، نَادِرًا، وَلَمْ يَتَفَرَّقِ الْمَشْيِعُونَ إِلَّا قُبَيْلَ صَلَاةِ الْمَغْرَبِ، وَقَدْ قَالَ أَحْمَدُ الصَّالِحُ النَّافِعُ وَهُوَ يَشَاهِدُ تِلْكَ الْجُمُوعَ الْغَفِيرَةَ فِي الْمَقْبَرَةِ:

أَحَبُّ أَبُوفَهْدِ الْاجْتِمَاعَ بِالنَّاسِ، وَدَعْوَتَهُمْ دَوْمًا عِنْدَهُ، فَجَمَعَ اللَّهُ لَهُ قُلُوبَ عِبَادِهِ؛ (مَنْ يَعْرِفُ وَمَنْ لَا يَعْرِفُ) بَعْدَ مَمَاتِهِ وَرَحِيلِهِ.

وَقَدْ شَاهَدَنِي عَامِلُ الْمَقْبَرَةِ (أَمِينٌ) وَاقِفًا عِنْدَ قَبْرِهِ - رَحِمَهُ اللَّهُ - بَعْدَ ٢٠ يَوْمًا مِنْ وَفَاتِهِ، فَجَاءَنِي وَقَالَ مَا مَعْنَاهُ: صَاحِبُ هَذَا الْقَبْرِ زَوَارُهُ وَمَنْ حَضَرَ دَفْنَهُ كَثِيرٌ جَدًّا، وَلَعَلَّهَا مِنَ الْمُبَشِّرَاتِ فَفَضَّلَ اللَّهُ وَاسِعًا.

وَحِينَ عِلْمِ عَنْ وَفَاتِهِ مَدِيرُ عَامِ هَيْئَةِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ بِمَنْطِقَةِ الْبَاحَةِ فَضِيلَةَ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ مَصْلُوحِ الْغَامِدِيِّ، تَأَثَّرَ جَدًّا، وَبَكَى وَأَبْكَى، وَلَمْ يَكْتَفِ بِاتِّصَالِهِ وَمَوَاسَاتِهِ؛ بَلْ جَاءَ فِي مَنْزِلِنَا مُوَاسِيًا مُعْزِيًا مَعَ أَوَّلِ رِحْلَةِ الرِّيَاضِ، مَحَبَّةً لِلْوَالِدِ، وَتَقْدِيرًا لَهُ.

وَقَدْ كَانَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - أَوْصَانًا بِالصَّلَاةِ عَلَيْهِ، وَدَفْنَهُ بِمَسْقَطِ رَأْسِهِ الزَّلْفِيِّ مِنْ سَنَوَاتٍ، وَلَمَّا سَمِعَ بِقَصِيدَةِ الشَّاعِرِ وَالْأَدِيبِ الْكَبِيرِ: حُمُودِ النَّافِعِ - رَحِمَهُ اللَّهُ - وَكَانَ صَدِيقًا لَهُ يَزُورُهُ

بِاسْتِمْرَارٍ فِي مَنْزِلِهِ، أُعْجِبَ بِهَا وَأَصْبَحَ يَرُدُّدَهَا، حَيْثُ يَقُولُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

يَا عِيَالِ لَا مِنْ جَانِ حَقِّي مِنَ الْمَوْتِ وَدَوْنِي الزَّلْفِيِّ فِيهِ اذْفُنُونِي
دَارَ لَنَا فِيهَا قَرَابَاتٌ وَبِيُوتُ وَابُوي وَأُمِّي مِنْ زَمَانِ إِسْبِقُونِي

والخاتمه يا الله يا سامع الصوت
لطفك وعفوك يومهم وادعوني
وقد فاضت قريحة أختي - مضاوي - وهي تُشاهد صوراً للدَّكَّة التي يَسْتقبل فيها ضيوفه
ومُحبيه، وصوراً للنخلِ الباسقات يميل بجريدها الهواء، فنثرتُ هذه الأبيات المُبكيات:

أدكَّةُ نَشْتِكِي فُقْدَانَ سَيِّدِهَا
ورَوْضَةٌ فَاضَ مِنْهَا الْحَزْنَ هَتَّانَا
ومنزلاً فارهٌ بالحسنِ قد مُلِئَتْ
بدمعِ فُقْدَانِهِ والشُّوقِ جُدْرَانَا
ونخلةِ الظلِّ أَضْحَتْ كُلَّ بَاكِرَةٍ
تراقبِ البَابَ عَلَّ الظلَّ يَزِدَانَا
كأنَّ أيدي جريدِ النخلِ تسألنا
مَا بِال شَيْخِكُمْ مَا طَلَّ أَوْ بَانَ
يَانخلةِ الخَيْرِ جُودِي بِالْعَطَاءِ كَمَنْ
سَقَاكِ حُبًّا وَأَعْطَى وَهُوَ جَدْلَانَا
كُونِي كَظَلِّ يَدِيهِ حِينَ يَغْمُرُنَا
حُبًّا، أَمَانًا، وَعَطْفًا ذَاكَ تَحْنَانَا
مَالِي أَرَى بَعْدَكُمْ يَا وَالِدِي كَمَدًّا
فِي كُلِّ بُقْعَةٍ رَوْضٍ فَهُوَ ظَمَّانَا
حَتَّى وَلَوْ زَانَ فِيهِ الْغَيْثُ وَابْتَهَجَتْ
أَعْشَابُهُ وَارْتَوَتْ مِنْ فَضْلِ رَحْمَانَا
تَبْقَى حَيَاتِي بِنَقْصِ غَابِ جَوْهَرِهَا
أَبِي حَبِيبِي الَّذِي بِالْعَزْرِ رَبَّانَا
فَلَسْتُ قَائِلَةً مِنْ بَعْدُ (هَا أَنَا ذَا)
لِكِنَّهُ (كَانَ أَبِي) بِالْخُلُقِ أَوْصَانَا
يَا وَاسِعِ الْجُودِ يَا رَبِّي وَيَا أَمَلِي
وَيَا رَجَائِي وَمَنْ بِالْبِرِّ أَوْصَانَا
أَكْرَمُ عَزِيزًا لَطِيفَ النَّفْسِ أَسْمَحَهَا
بِجَنَّةِ الْخُلْدِ وَالْفِرْدَوْسِ لُقْيَانَا

وَلئنْ غَابَ عَنَّا وَالِدُنَا بِشَخِصِهِ، فَإِنَّ ذَكَرَهُ الْعَاظِرُ، وَسِيرَةَ النَّبِيلَةِ، وَذَكَرِيَاتِنَا مَعَهُ لَا تَغِيْبُ.

وَبَعْدَ أَنْ أَغْلَقْتُ صَفْحَتَهُ مِنْ سِجْلِ الْحَيَاةِ الْفَانِيَةِ، وَلَمْ يَبْقَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ إِلَّا الدَّعَاءُ:

فَأَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَرْحَمَهُ، وَيَتَقَبَّلَ دَعْوَةَ الدَّاعِينَ وَالْمُصَلِّينَ، وَأَنْ يَفْسَحَ لَهُ فِي قَبْرِهِ، وَيُوسِعَ
مُدْخَلَهُ، وَيُعْطِرَ مَشْهَدَهُ، وَيُطَيِّبَ مَضْجَعَهُ، وَيُؤْنِسَ وَحْشَتَهُ.

اللهم ارزقه جزاءً إحسانه لنا ولعبادك المؤمنين الفردوس الأعلى من الجنة

اللهم امين اللهم امين ..

وإن من البرِّ نشر سيرته بين أولاده وأحفاده؛ لينتفعوا بها، وليدعوا له بالمغفرة والرحمة..

كتبه

ابنه: خالد بن عبدالله النافع

أبو عاصم